احوال المعلمين

واحكام المعلمين والمتعلمين

للاستاذ فؤاد الاهواني

هو عنوان لكتاب في التربية مخطوط ، وجدته في مكتبة باريس الاهلية . ولعلك أدركت من العنوان أنه كتاب قديم ، فقد كان القدماء يغرمون بسجع العنوان . والنسخة المخطوطة قديمة ، وتاريخ خطها يرجع الى سنة ٧٠٦ للهجرة ، ويقع المخطوط في سبع وتسعين ورقة من الحجم المتوسط وفي كل صفحة حول الثلاثة عشر سطراً ، ويغلب على الخط ان يكون مصريًا

والعنوان السالف هو الذي ذكر في فهرس المخطوطات لمكتبة باريس الاهلية ، وفي النبذة القصيرة التي كتبت في الفهرس ذكر اسم المؤلف على هذا النحو « ابو الحسن علي بن محمد القابسي » . أما الاسم الصحيح للكتاب وهو المكتوب على ظاهر النسخة فهو « الفضيلة لاحوال المعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين » . أما اسم المؤلف الذي ورد بالنسخة فهو « ابو الحسن علي بن محمد بن خلف المعروف بالقابسي الفقيه القيرواني » وذكره ابن خلكان في الجزء الاول من وفيات الاعيان فقال هو « ابو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي المعروف بابن القابسي » وترجم له صاحب « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » فقال « أبو الحسن القابسي علي بن محمد بن خلف المعافري القيرواني الفقيه شيخ المالكية أخذ عن ابن مسرور الدباغ وفي الرحلة عن حزة الكتاني وطائفة ، وصنف تصانيف فائقة في الاصول والفروع ، وكان مع تقدمه في العلوم حافظاً صالحاً تقيًا ورعاً حافظاً للحديث وعلله منقطع القرين وكان ضريراً وفيًا »

***

والقابسي نسبة الى قابس ، والقابس ، بفتح القاف ، وبعد الالف باء موحدة مكسورة ثم سين مهملة مدينة بافريقية بالقرب من المهدية . ولما فتحها الامير تميم بن المعز قال بن محمد خطيب سوسة قصيدة طويلة أولها :

ضحك الزمان وقد كان يدعى عابسا ... لما فتحت بجد عزمك قابسا
أنكحتها عذراء ما أصدقتها ... الاّ قناً وبواتراً وفوارسا
الله يعلم ما جنيت غارها ... الاّ وكان ابوك قبلك غارسا
من كان بالسمر العوالي خاطباً ... أضحت له بيض الحصون عرائسا

وكانت ولادته في يوم الاثنين لست مضين من رجب سنة أربع وعشرين وثلثمائة ، وعاش طويلاً حتى طعن في السن وسئم الحياة ، حتى انه كان كثيراً ما ينشد قول زهير بن ابي سلمى المزني

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولاً لا إبالك يسأم

قال ابن خلكان « كان إماماً في علم الحديث ومتونه وأسانيده وجميع ما يتعلق به ، وكان للناس فيه اعتقاد كثير ، وصنف في الحديث كتاب الملخص جمع فيه ما اتصل إسناده من حديث مالك بن أنس رضي الله عنه في كتاب الموطأ رواية ابي عبدالله عبد الرحمن بن القاسم المصري وهو على صغر حجمه جيد في بابه . . . . . وتوفي ليلة الاربعاء وقت العصر بالقيروان ، وبات عند قبره من الناس خلق كثير ، وضربت الاخبية ، واقبل الشعراء بالمراثي ، رحمه الله تعالى »

وكانت وفاته في عام ٤٠٣ من الهجرة

***

فالقابسي من علماء الصدر الخامس للهجرة ، وكتابه هذا يعد من أقدم الكتب العربية في التربية . ولتأليف هذا الكتاب قصة ، ذلك أن أبا الحسن كان محدثاً فقيهاً لا شأن له بالتربية ، فما الذي حدا به أن يضع مصنفاً في التعليم ؟ الحقيقة أن مركز القابسي كعالم في الدين والفقه وحجة في الاسلام كان باعثاً للناس أن يتقدموا اليه يسألونه في أمور الدين ، وكان يفتي ويقضي بكتاب الله وسنّة الرسول ، ومن هذه الأسئلة ما تقدم به أحد الناس ، فوجدها كلها أو أغلبها تتصل بناحية واحدة عن التربية والتعليم ، فجمعها في كتاب واحد ، وضع له ذلك العنوان السالف . ولذلك يجري الكتاب على هيئة أسئلة يجيب عنها ابو الحسن

وإذا كان العرب قد كتبوا في التربية ، فإنك قلما تجد كتاباً خاصّاً مفصلاً يعالج هذا الموضوع ، بل أغلب ما كتب فصول متناثرة خلال المؤلفات ، كالفصل الذي وضعه ابن خلدون في مقدمته وكما ذكر الغزالي في الاحياء . وقد تعرض المؤلف هنا لمسائل تعد مما يشغل أذهان المفكرين في هذا العصر ، وقضى فيها بآراء طريفة ، فقد تكلم عن التعليم الالزامي ، وتعليم المرأة ، وأجر المعلم ، وعقاب التلميذ ، والفصول المدرسية ، ومناهج التعليم وغير ذلك من

المشاكل المعقدة التي لا يزال يدور حولها البحث حتى الآن ، وسأعرض رأيه في مسألتين : تعليم البنت ، وعقاب وتأديب التلاميذ

***

« . . . وأما تعليم الأنثى القرآن والعلم فهو حسن ومن مصالحها ، فأما أن تعلم الترسل والشعر وما أشبهه فهو مخوفٌ عليها . وإنما تعلم ما يرجى لها صلاحه ، ويؤمن عليها من فتنته ، وسلامتها من تعلم الخط أنجا لها . ولما أذن النبي صلى الله عليه وسلم للنساء في شهود العيد أمرهنَّ أن يخرجنَ العواتق ذات الخدور ، أو العواتق وذوات الخدور ، وأمر الحائض أن تعتزل ، فصلى الناس وقال يشهدْن الخير ودعوة المسلمين ، فلي مثل هذا تبتل في تعليمهنَّ الخير الذي يؤمن عليهنَّ فيه وما خيف عليهنَّ منه ، فصرفه عنهنَّ أفضل لهنَّ ، وأوجب على متولي أمرهنَّ . ففهم ما بينت لك ، واستهدي الله يهدي ، وكفى به هادياً ونصيراً

واعلم أن الله جلَّ وعزَّ قد أخذ على المؤمنات فيما عليهنَّ كما أخذ على المؤمنين فيما عليهم . وذلك في قوله جلَّ وعزَّ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً الآية . وقوله والمؤمنون والمؤمنات الآية ، وجمعهما في حسن الجزاء في غير آية من كتابه . وفي قوله تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات الآية . وأمر أزواج نبيه عليه السلام أن يبين ما استعمنَ منه صلى الله عليه وسلم فقال واذكرنَ ما يتلى في بيوتكنَّ من آيات الله والحكمة . فكيف لا يعلمنَ الخير وما يبين عليه ، ويصرف عنهنَّ القائم عليهنَّ ما يحذر عليهنَّ منه ؟ إذ هو الراعي فيهنَّ ، والمسئول عنهنَّ ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم

***

أما ما ذكره في بيان سياسة معلم الصبيان وقيامه عليهم وعدله فيهم ورفقه بهم ، فهو ما يأتي :—

« . . . . ومن حسن رعايته لهم أن يكون بهم رفيقاً ، فانه قد جاء عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهمَّ من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فيه فارفقْ به . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يحب الرفق في الامر كله وإنما يرحم الله من عباده الرحماء . قال ابو الحسن فقولك هل يستحب للمعلم التشديد على الصبيان او ترى ان يرفق بهم ولا يكون عبوساً ، لأن الأطفال كما علمت تدخل في هذه الوصية المتقدمة ولكن إذا أحسن المعلم القيام وعنى بالرعية ، وضع الأمور مواضعها ، لأنه هو المأخوذ بأدبهم والناظر في زجرهم عما لا يصلح لهم ، والقائم باكراههم على مثل منافعهم ، فهو يسوسهم في كل

ذلك مما ينفعهم ، ولا يخرجهم ذلك من حسن رفقه بهم ، ولا من رحمته إياهم ، فانما هو لهم عوض من آبائهم . فكونه عبوساً أبداً من انقباضة المعقوتة ، وليس لمس الصبيان بها فيجترئوا عليه ولكنه اذا استعملها عند استهالهم الأدب ، صارت دلالة على وقوع الأدب بهم فلم يأنسوا إليها فيكون فيها اذا استعملت أدباً لهم في بعض الأحايين دون الضرب ، وفي بعض الأحايين يوقع الضرب معها بقدر الاستهال الواجب في ذلك الجرم . ولكن لا ينبغي له ألا يتبسط بهم تبسط الاستئناس في غير تقمص موحش في كل الأحايين ، ولا يضاحك أحداً منهم على حال ، ولا يبتسم في وجهه ، وإن أرضاه وأرجاه على ما يحب . ولكنه لا يغضب عليه فيوحشه اذا كان محسناً . واذا استأهل الضرب فاعلم أن الضرب من واحدة الى ثلاث فليستعمل اجتهاده لئلا يزيد في رتبة فوق استهالها . وهذا هو ادبه اذا فرط فتثاقل عن الاقبال على المعلم ، فتباطأ في حفظه ، وكثر الخطأ في حزبه ، أو في كتاب لوحه ، من نقص حروفه ، وسوء تهجيه ، وقبح شكله ، وغلطه في نقطه ، فنبه مرة بعد مرة ، فأكثر التفاضل ، ولم يُثنِ فيه العذل والتقريع بالكلام الذي فيه التواعد ، من غير شتم ، ولا سب لعرض ، كقول من لا يعرف لأطفال المؤمنين حقاً فيقول : ياماسخ ياقرد ، فلا يفعل هذا ولا ما كان مثله في القبح ، فان فلتت له واحدة فليستغفر الله منها ، وليتهي عن معاودتها . وانما تجري الالفاظ القبيحة من لسان التي لم تملك الغضب من نفسه ، وليس هذا مكان الغضب ، وقد نهى الرسول عليه السلام أن يقضي القاضي وهو غضبان . وأمر عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه بضرب انسان ، فلما اقيم للضرب قال : أتركوه . فقيل له في ذلك فقال : وجدت في نفسي عليه غضباً فكرهت ان اضربه وانا غضبان

***

قال ابو الحسن كذا ينبغي لمعلم الصبيان أن يراعي منهم حتى يخلص أدبهم لمنافعهم ، وليس لمعلمهم في ذلك شفاء من غضبه ، ولا شيء يزيح قلبه من غيظه ، فان ذلك إن أصابه فانما ضرب اولاد المسلمين فراحة نفسه وهذا ليس من العدل ، فان اكتسب الصبي جرماً من أذى ولعب وهروب من الكتاب وإدمان البطالة ، فينبغي للمعلم أن يستشير ابوه ، او وصيه ان كان يتيماً ، ويطلعه بجرمه ، اذا كان يستأهل من الأدب فوق الثلاث ، فتكون الزيادة على ما يوجبه التقصير في التعليم عن إذن من القائم بأمر هذا الصبي . ثم يزاد على الثلاث ما بينه وبين العشر اذا كان الصبي يطيق ذلك . وصفة الضرب هو ما يؤلم ولا يتعدى الألم الى التأثير المشنع أو الوهن المضر . وربما كان من صبيان المعلم من يناهز الاحتلام ، ويكون سيء الرعة ، غليظ الخلق ، لا يريعه وقوع عشر ضربات عليه ، ويرى للزيادة عليه مكاناً وفيه محتمل مأمون ، فلا بأس إن شاء الله من الزيادة على العشر ضربات ، والله يعلم المفسد من المصلح